تقديم

للدكتور محمّد عيسوي

أصل هذا الكتاب رسالة علمية نال عنها كاتبها السيد/ عادل فاروق درجة الماجستير في الآداب من قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة، وكان عنوانها "أثر الاعتزال في التوجيه النحوي من خلال تفسير الكشاف للزمخشري" الذي أسماه "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل".

وهي دراسة نحويّة دلالية، تناولت الآيات التي أوَّلها الزمخشريُّ وأظهر فيها أفكار المعتزلة، وربط بينها وبين مصطلحات النحو والإعراب، وعلاقة ذلك بالمعنى. والزمخشري من أبرز أعلام الفكر الاعتزالي، وله إنتاج غزير في ميادين النحو والصرف والبلاغة، وكتابه "الكشاف" موسوعة اعتزالية من خلال التفسير.

وقد شاركت المرحوم الأستاذ الدكتور محمد أحمد خضير في الإشراف عليها، وحين شرع الباحث في جمع مادته العلمية أشفقت عليه من مغبَّة التعرض للفكر الاعتزالي، ومع القراءات المستأنية للكشاف والحواشي التي أحاطت به، هي الانتصاف لابن المنير، والكافي الشافي لابن حجر، وحاشية الشيخ المرزوقي، ومشاهده على شواهد الكشاف، وللمصادر والمراجع الأخرى التي تناولت الفكر الاعتزالي وأصول أهل السنة والجماعة، انزاحت خشيتي شيئا فشيئا، فقد تمكن من إدراك غوامضه وخفايا أسلوبه. ومع تقدم الباحث في قراءاته وجدته متجاوبا معي إلى حدٍّ بعيد، ولا أغفل أثر توجيهات الصديق المرحوم الدكتور محمد خضير التي أفاد منها الباحث حتى استوى عمله رسالة علمية، نال عنها ثناء لجنة المناقشة برئاسة أستاذنا الدكتور حسين نصار.

وقد تناول الباحث دراسته في بابين؛ أحدهما بعنوان "الاعتزال والتأويل" وضم ثلاثة فصول، أولها وسائل التأويل، ذكر فيه الدافع إلى التأويل، وسبب تسمية الوسائل، ثم عرض هذه الوسائل التي استعان بها الزمخشري ليصل إلى تأكيد مبادئه الاعتزالية، وفي مطلعها مبحث الفاعلية،

ثم الشرط والاستثناء والدعاء، ونفي الفعل بنفي ما يقتضيه، ووسيلة قيام الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة. والفصل الثاني حروف المعاني، وقصد بها الحروف الاثني عشر التي أعطاها الزمخشري دلالة جديدة أو حافظ على دلالتها المعروفة لدى النحاة. والثالث التأويل والتركيب، وأوضح فيه الفرق بين التفسير والتأويل، والفرق بين تقدير النحويين والعقديين، ثم أثر التأويل على التركيب.

وجاء الباب الثاني بعنوان "الاعتزال والتوجيه النحوي" وضم ثلاثة فصول، أولها توجيه سببه القراءة، عرض فيه كل ما أحدثه من توجيه اعتمد فيه الزمخشري على اختيار قراءة أو رفض أخرى، وقد قسمه الباحث حسب مبادئ المعتزلة "التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد". والثاني توجيه سببه الجواز، تناول فيه التوجيهات النحوية التي اعتمد فيها على الأوجه الجائزة نحويا، وقسمه الباحث حسب الأصول الاعتزالية "العدل، والوعد والوعيد"، ووسائل أخرى.

والثالث توجيه سببه التأويل، عرض فيه الباحث الآيات التي اعتمد فيها الزمخشري على الأوجه النحوية الضعيفة المخالفة لأقسية النحاة، أو اعتمد فيها على آراء أئمة المفسرين، وقسمه الباحث حسب الأصول الاعتزالية "التوحيد والعدل" ومسائل أخرى.

وختم الباحث عمله بخاتمة تناولت أهم النتائج التي توصل إليها، والأسئلة التي أجاب عنها، وأهمها:

- كيف استطاع الزمخشري تطويع النحو لخدمة اعتزاله؟
- ما الآليات التي اعتمد عليها الزمخشري في تأويله؟
- هل كان موفقا في استخدام آلياته دائما؟
- ما موقفه من القراءات التي استعان بها في الكشاف؟
- إلى أي مدى تأثر الاعتزال بفكر الفلاسفة؟
- هل كان الفكر الاعتزالي جديرا بالبحث والدراسة؟ أو أنّ أفكاره لم تكن تستدعي أن يعيرها العلماء التفاتًا؟

وأرى أن الباحث قد وُفق إلى حدٍّ بعيد في تقديم الإجابات عن هذه التساؤلات التي تسترعى انتباه الباحثين الجادين، للكشف عن موازنة صادقة بين الفكر الاعتزالي وأصـــول أهـــل الســـنة والجماعة.

والله الهادي إلى سواء السبيل،،،

محمّد أحمد عيسوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي خلق الهدى والضلال، وخلق النقص لعلَّةٍ في الكمال، وله على ثواب أعمالنا كلُّ الأفضال، المتفضِّل على من سبَّح له بالغدو والآصال، الحمدُ لله الذي بمحض قدرته يُصرِّف الأحوال، ويرزق الرزق كلَّه ولم يختص بالحلال، الحمد لله الذي خلق الأفعال والمُحال، المستوفي للقتلى والشهداء حين القتل كلَّ الآجال، وسبحانه وتعالى عمَّا أوَّله أهلُ الاعتزال، وخالفوا به سنة نبينا محمَّد صلى الله عليه وسلم والآل، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللهُ الكريمُ المتعال، وصلِّ اللهم على سيدنا محمَّد الشفيع المشفّع لكل عبدٍ مسلم يومَ السؤال، وعلى آله وصحبه وسلِّم عدد حبَّات الرمال.

آمين

عادل فاروق

كلمة المؤلف

يناقش الكتاب قضية من أبرز القضايا النحويَّة، ألا وهي القضية النحوية الدلاليـــة الـــتي تبحث علاقة المعنى بالتوجيه النحوي والتراكيب، إلا أنه يسلط الضوء على الفكر الاعتزالي، لمـــا حظي به من اهتمام من قبل علماء النحو والتفسير والحديث والبيان والفقه، فالكتاب يتناول الفكر الاعتزالي من زاوية محددة وهي الزاوية النحوية، إذ إنَّ الإعراب فرع المعنى، ومن ثم كان لـــذلك التغيير الذي أحدثه المعتزلة ـــ كغيرهم من العقديين ـــ في المعنى بتأويلهم لآي القرآن الكريم أثـــرُه الكبير في التراكيب النحوية والتوجيه بنيةً وإعرابًا، اعتمادًا على التأويل وغيره من الوســـائل الـــتي يتخذها العقديون آلياتٍ لنصرة مذاهبهم.

ويتناول تفسير "الكشاف عن حقائق غوامض التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" للزمخشري مادةً للبحث باعتباره خلاصة أذهان المعتزلة والمبلور الرئيس لما عُنوا به مـــن أفكـــار، فمكانة الزمخشري العلمية ونبوغه في ميادينَ عدةٍ مثل النحو والبلاغة والتفسير جعلتـــه يصـــوغ كشافه على الوجه الذي أتاح للباحثين التنقيب عما به من مكنونات اعتزالية كان لها أثرها العميق في التوجيه النحويّ بنيةً من ناحية، وإعرابا ظاهرا أو مقدرا من ناحية أخرى.

كما يعرض الكتاب نبذة عن حياة الزمخشري وبيئته وكشافه في المقدمة مدخلا لموضوع البحث.

والكتاب دراسة نحويَّة دلاليَّة لكتاب الكشاف تتناول جميع الآيات جليها وخفيها التي أوَّلها المعتـــزلة وكشف الصلة بين أفكار المعتـــزلة والنحو مصطلحاتٍ وإعرابًا.

وذلك لأن الدراسات السابقة لم تتناول من الكشاف إلا آيات معدودة ظهر فيها الفكـــر الاعتـــزالي بوضوح، بيد أن هناك الكثير من الآيات التي أوَّلهـــا المعتـــــزلة ولم تتناولهـــا تلـــك الدراسات ولذلك فقد حاولت تغطية الموضوع من كل زواياه بقدر المستطاع.

وقد اخترت الفكر الاعتـــزالي لظهوره على غيره من أفكار الفرق في تلـــك الفتـــرة الثرية من تاريخ أدبنا وتراثنا العربي، تلك الفترة التي شهدت ظهور كوكبة متألقة من علماء اللغة والنحو من أمثال قطرب والأخفش والفراء والســـيرافي والزمخشري وغيرهم. إن تلك الهيمنة لهذا المذهب، وما أثاره من نشاط فكريٍّ جعله واحدا من الموضوعات الجديرة بالبحث.

ويرجع اختياري لكتاب الكشاف ودراسته دراسة نحويـــة دلاليـــة ـــ رغـــم أن الزمخشري قد ترك لنا دررا مكنونة تزهو بها مكتبتنا العربية وتطرق فيها إلى مناح أدبية وعلميـــة عديدة كالعلوم الدينية والفقهية واللغة والنحو والعروض والأدب والمنطق ـــ إلى عـــدة أســـباب منها:

أنه الكتاب الوحيد الذي ألفه الزمخشري في تفسير القرآن الكريم، وهـــو موســـــوعة في التفسير حافلة بجوانب عدة مثل اللغة والنحو والبلاغة والفقه والقـــراءات والأدب، وهـــو أيضـــا موسوعة في الاعتزال يجب أن يتنبه إليها كلُّ قارئ؛ حتى لا يتشبع بأفكار المعتزلة ـــ مبهورا ببلاغة الزمخشري وحنكته في النحوـــ دون أن يدري.

وقد ربطت بين الجانب الفكري الاعتـــزالي وأثره على النحو عند الزمخشري، ولم تظهـــر أفكـــار الزمخشري الاعتـــزالية في كتاب كما ظهرت في الكشاف، حيث أودع فيـــه عصـــارة فكـــره الاعتـــزالي، وخصوصا أن المعتـــزلة جعلوا القرآن الكريم هو المصدر الرئيس للدين وبنَوا عليه مذهبَهم.

كما أنه ـــ الكشاف ـــ لم يأخذ حقه الأوفى بالدرس والتحليل دراسة نحوية خالصة، كما لم يتم ربط الجانب الفكري الدلالي بالجانب النحوي فيه، اللهم إلا ما تناولته بعض الأبحاث مـــن بعض حباته متناثرة لتدعم رأيا، أو لتضرب مثالا، أو لتعقد صلة بين آيات محـــددة منـــه تتعلـــق بالمذهب الاعتـــزالي من جهة وبين ضرب من ضروب الجوانب اللغوية المختلفة من جهة أخرى.
فالكشاف لم يُتَناول ـــ على حد علم الباحث ـــ دراسةً نحويَّة دلاليَّة تفصيلية مصـــدرا رئيســـا للبحث.

منهج الكتاب:

ويعتمد الكتاب المنهج الوصفي، حيث يحاول رصد الآيات التي اعتقد المعتزلة أنها تؤكد أفكارهم الاعتزالية، وتفسير الزمخشري لتلك الآيات معتمدًا على براعته في علمي البيان والنحو، فهل وافق هذا التفسير المعنى القريب للتركيب؟، أو أن الزمخشري يحاول تأويل التركيب أو قسره على توجيهٍ نحويٍّ ما، ليؤيد فكره الاعتزالي؟

ويتكون الكتاب من مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة على النحو التالي:

المقدمة: تتناول موضوع البحث وتلقي الضوء على النقاط البارزة فيه، وسبب اختياري للموضوع، وأهدافه، والمادة التي اعتمدت عليها الدراسة، ومنهج البحث.

التمهيد: يعرض ثلاث أفكار رئيسة أقيم عليها البحث وهي:

١ ــ الزمخشري: وقد قمت فيه بعرض ترجمة له تتضمن تعريفا له، ووصفا لحياته، ورحلاته، وحبه لاعتزاله، ومذهبه النحوي، وأساتذته، وتلاميذه، وتختتم بوفاته سنة ٥٣٨ هـ.

٢ ــ الاعتزال في خوارزم: وتناولت فيه وصف مدينته (خوارزم) منذ الفتح الإسلامي لها سنة ٩٣ هـ على يد قتيبة بن مسلم الباهلي، ثم ذكرت أسباب تأثر خوارزم بالاعتزال وأوجه الخلاف بينها وبين غيرها من الأقطار التي فتحها المسلمون وعرضتُ فترات الضعف والقوة للمذهب الاعتزالي، ثم عرضتُ أصول الاعتزال وما اندرج تحتها من أفكار فرعية.

٣ ــ الكشاف: وتناولت فيه بعض الأعلام التي اطلع الزمخشري على نتاجهم الفكري.

الباب الأوَّل: الاعتزال والتأويل: ويتكون من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وسائل التأويل: ويتناول مقدمة عن الدافع إلى التأويل وسبب تسميتها بالوسائل، ثم قمت بعرض تلك الوسائل التي استعان بها الزمخشري في الكشاف لِيَنفُذ ــ من

خلال ألفاظ لها دلالات مقصودة ـــ إلى تأكيد مبادئه الاعتزالية، وجعلت مبحث الفاعلية في مطلع الوسائل ثم الشرط على سبيل الإلجاء والقسر، ثم الاستثناء على سبيل الإلجاء والقسر، ثم الدعاء على سبيل التسبيب، ثم نفي الفعل بنفي ما يقتضيه، ثم ختمت الفصل بوسيلة قيام الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة.

الفصل الثاني: حروف المعاني: وتناولت فيه الحروف ـــ وعددهم اثنا عشر حرفا، ابتداءً بالهمزة وانتهاء بالواو ـــ التي أعطاها الزمخشري دلالة جديدة أو حافظ على دلالتها المعروفة لدى النحويين مع إضافة لفظ جديد يعطيها دلالة تسمح له بالتأويل وإثبات فكرة من أفكار مذهبه.

الفصل الثالث: التأويل والتركيب: ويتناول مقدمة تشتمل على بيان الفرق بين التفسير والتأويل والفرق بين تقدير النحاة وتقدير العقديين، ثم أثر التأويل على التركيب ويتكون من أربع نقاط رئيسة:

أ ـــ الترتيب بين الجمل.

ب ـــ الزيادة.

ج ـــ الحذف: وتناولت فيه حذف المرفوعات، ثم حذف المنصوبات، ثم حذف الجملة، ثم حذف الأدوات والتراكيب الوظيفية، ثم حذف تراكيب التوابع.

د ـــ الحمل على المعنى.

الباب الثاني: الاعتزال والتوجيه النحوي: ويتناول مقدمة تعرض خطة الباب بصفة عامة، والمنهج المتبع في تقسيمه، ويتكون من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: توجيه سببه القراءة: وتناولت فيه كل ما أحدثه الزمخشري من توجيه معتمدا فيه ـــ أي الزمخشري ـــ على اختيار قراءة أو رفض أخرى، وبدأت فيه بمقدمة تعرض الفكرة

العامة للفصل، وقد قمت بتقسيم هذا الفصل وفقا لأصول الاعتزال وهي: (أصل التوحيد ــ أصل العدل ــ أصل الوعد والوعيد).

الفصل الثاني: توجيه سببه الجواز: وتناولت فيه التوجيهات النحوية التي أحدثها الزمخشري اعتمادا على الأوجه الجائزة نحويا وجوازها قوي، وقمت بتقسيم الفصل وفق الأصول الاعتزالية (العدل، والوعد والوعيد)، ثم صنفت بعض الأفكار الحائدة عن الأصول والفروع تحت اسم "وسائل أخرى".

الفصل الثالث: توجيه سببه التأويل: وعرضت فيه الآيات التي جنح الزمخشري فيها بتأويله دون الاعتماد على آلياته التأويلية كالقراءات أو الأوجه الجائزة، وإنما اعتمد فيها على الأوجه النحوية الضعيفة المخالفة لأقيسة النحاة، أو اعتمد فيها على رأي أئمة المفسرين.

وقمت بتقسيمه وفق أصول الاعتزال وهي: (أصل التوحيد ــ أصل العدل ــ مسائل أخرى).

الخاتمة: تتناول أهم نتائج البحث وتتضمن آراء الزمخشري المخالفة للاعتزال وتناقضات الزمخشري في الكشاف، وختمت هذا المبحث بموقف الزمخشري من القراءات، والأسئلة التي حاول البحث الإجابة عنها.

التمهيد:

الزمخشري

هو محمود بن عمر بن محمد[1]، الملقب بجار الله، وكنيته أبو القاسم، وسمي بالزمخشري نسبة إلى بلدته زمخشر، أما لقبه (جار الله) فقد لقب نفسه به لمجاورته مكة وملازمته بيت الله الحرام.

حياته:

ولد يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة هجرية بزمخشر، قرية من قرى خوارم[2]، وقدم بغداد وسمع من أبي الخطاب بن البطر وغيره[3]، وأخذ الأدب عن أبي مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني، وأبي الحسن علي بن المظفر النيسابوري، وسمع من شيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي، ومن أبي سعد الشقّاني[4].

عاش الزمخشري في الفترة التي حكم فيها السلطان جلال الدين أبوالفتح ملكشاه السلجوقي الذي حكم من(٤٦٥: ٤٨٥ هـ)، وكان خلقه العدل والشجاعة والتدين والشغف بالعلم والأدب، وكان وزيره نظام الملك الذي أخلص في تدبير البلاد وعمل على رفعتها والنهوض بها،

---

(١) طبقات المفسرين للأدنروي: ١٧٢ طبقات المفسرين للسيوطي: ١٠٤، وهذا هو الأرجح في التسمية وذكره ياقوت باسم محمود بن عمر بن أحمد (معجم الأدباء ٥/ ٤٩٨).

(٢) يقول ياقوت: وخوارزم ليس اسما للمدينة، إنما هو اسم للناحية بجملتها، فأما القصبة العظمى فقد يقال لها اليوم جرجانية، وقد ذكرت في موضعها وأهلها يسمونا كركانج، وقد ذكروا في سبب تسميتها بهذا الاسم أن أحد الملوك القدماء غضب على أربعمائة من أهل مملكته وخاصتة وحاشيته فأمر بنفيهم إلى موضع منقطع عن العمارات بحيث يكون بينهم وبين العمائر مائة فرسخ فلم يجدوا على هذه الصفة إلا موضع مدينة كاث، وهي إحدى مدن خوارزم فجاءوا بهم إلى هذا الموضع وتركوهم وذهبوا، فلما كان بعد مدة جرى ذكرهم على بال الملك فأمر قوما بكشف خبرهم فجاءوا، فوجدوهم قد بنوا أكواخا ووجدوهم يصيدون السمك وبه يتقوّتون وإذا حولهم حطب كثير، فقالوا لهم كيف حالكم فقالوا عندنا هذا اللحم وأشاروا إلى السمك وعندنا هذا الحطب فنحن نشوي هذا بهذا ونتقوت به، فرجعوا إلى الملك وأخبروه بذلك فسمي ذلك الموضع خوارزم،لأن اللحم بلغة الخوارزمية خوار والحطب رزم، فصار خواررزم، فخفف وقيل خوارزم استثقالا لتكرير الراء (معجم البلدان ٢/٢٥٢).

(٣) طبقات المفسرين للسيوطي: ١٠٤.

(٤) ذكرهم ياقوت في معجم الأدباء: ١٢٧/١٩.

فاتسع نفوذ جلال الدين وازدهرت البلاد في ظلال حكمه في الأدب والفن والعلم أيَّما ازدهـــار، وتوفي سنة ٤٨٥ هـــ وكان ذلك إنباءً بسقوط الدولة السلجوقية العظمى (من ٤٢٩: ٥٥٢ هـــ) وقيام الدولة الخوارزمية (من ٤٩١: ٦٢٨ هـــ).

ومن ثمّ فقد عاش الزمخشري أزهى عصور خوارزم، حيث ازدهار الثقافة والآداب والفنون والعلوم فدفعه ذلك إلى البحث عن العلم في كل مكان، حتى حدا به طموحه إلى أن يكون رحالةً يجوب البلاد، فتارة يرحل إلى بخارى طلبا للعلم ثم إلى خراسان هروبا من يأسه حين ضاق به المقام في خوارزم؛ لعدم تحقيقه مآربه من أموال ومناصب، ثم إلى أصفهان يأسا وإحباطا من خراســـان التي عز عليها أيضـــا أن تلبي مآربه، ثم إلى بغـــداد للنقـــاهة من مرضه العضـــال الذي ألم بـــه سنة (٥١٢هـــ) وناظر فيها وسمع من علمائها، ثم سافر إلى مكة مُنية نفسه ولازم بيت الله الحرام فأقام هناك سنتين بالحجاز ثم اليمن حتى قال: "وطئتُ كلَّ تربةٍ من أرض العرب"[1]، وهناك قـــرأ كتاب سيبويه على عبد الله بن طلـــحة اليـــابري(ت ٥١٨ هـــ) وقد أكرم وفادته الأمير العلوي علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس في مكة، إذ كان أميرا شهما جوادا، ثم رجع إلى خوارزم ممنيا نفسه بالحصول على ما يأمل من مال ومنصب ولكنه لم ينلهما وإن نال منـــزلة رفيعة عند محمد خوارزم شاه وابنه اتسز(ت٥٥١ هـــ)،ثم سافر إلى مكة مارًّا بالشام، وفي مكـــة قضـــى ثـــلاث سنوات ألَّف فيها كتابه (الكشاف)،وبعد ذلك قرر عودته الأخيرة إلى خوارزم مارًّا ببغداد ســـنة ٥٣٣هـــ، وفي خوارزم أقام حتى وافته المنية ليلة عرفة سنة ثمـــان وثلاثـــين وخمســـمائة (٥٣٨ هـــ)[2] بجرجـــانية عن إحدى وسبعين سنة، ودفن جثمانه بقبر خارج خوارزم وكانت وفاته في عهد الملك أتســـز محمد بن نوشتكين(ت ٥٥١ هـــ) آخر سلاطين الدولة السلجوقية الذي اتسم عصره بالقوة والازدهار لينهي الزمخشري حياته في ظروف سياسية مستقرة كما بدأت في عهـــد جلال الدين ـــ وإن اعترتها بعض الصراعات وخصوصًا مع الفرنج ـــ بعد أن أثرى المكتبة العربية بمصنفاته النحوية واللغوية والأدبية والتفسيرية التي يقارب عددها الخمسين[3]، وبعـــد أن تتلـــمذ على يديه علمـــاء كثيرون من أمثال أبي عمرو عامر بن الحسن السمسار، والموفق بن أحمد بن أبي

---

[1] أساس البلاغة: ٧٨/١.

[2] طبقات المفسرين للسيوطي: ١٠٤.

[3] ذكرها ياقوت في معجم الأدباء: ١٣٤/١٩.

سعيد المعروف بأخطب خوارزم، وعلي بن محمد العمراني الخوارزمي، أبي الحسن الأديب الملقب بحجة الأفاضل وفخر المشايخ، ومحمد بن أبي القاسم بايجوك، أبي الفضل الخوارزمي البقالي، الملقب بزين المشايخ[1]، وعلي بن عيسى بن حمزة بن وهاس.

حبه لمذهبه:

أحب الزمخشري مذهبه حبًّا جمًّا وكان مقتنعا به كل الاقتناع، والأدلة على ذلك كثيرة، أذكر منها:

١ ــ أنه كان إذا قصد صاحبا له واستأذن عليه في الدخول، قال لمن يأخذ له الإذن: "قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب"[2].

٢ــ مدحه لمذهب المعتزلة ــ في أكثر من موضع ــ واعتباره أنه أشرف المذاهب وأرقاها، فيقول: "وبهذا يعلم أن أشرف العلوم وأعلاها منزلة عند الله علم أهل العدل والتوحيد[3] ولا يغرنك عنه كثرة أعدائه

فإنَّ العرانين تلقاها محسَّدةً ولا ترى للئامِ الناسِ حُسَّادَا[4]

وكذلك في قوله: "إن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد رضوان الله عليهم نسبة المجبرة القبائح إلى الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا"[5].

٣ــ قدحه في من خالف مذهبه وبخاصة أهل السنة، ومن ذلك قوله: "أهل الأهواء والبدع يتصامون ويتعامون عن آيات الله فيتخبطون خبط العشواء"[6]، وقد أكد المرزوقي أنه

---

[1] طبقات المفسرين للسيوطي: ١٠٢.

[2] وفيات الأعيان: ٢٥٥/٤، وشذرات الذهب ١٢٠/٤، وقد كان الزمخشري متظاهرا باعتزاله لقول ابن خلكان: "كان إمام عصره وكان متظاهرا بالاعتزال داعية إليه" (طبقات المفسرين للسيوطي: ١٠٤).

[3] يقصد المعتزلة، فقد أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم لقولهم بقدرة العبد على خلق أفعاله، وأنه ليس لله صنع فيها أو تقدير (الملل: ٦٦/١).

[4] الكشاف: ٢٩٩/١، والبيت للمغيرة بن المهلب.

[5] الكشاف: ٦٥٨/٢، وعلق عليها المرزوقي بقوله: "ومن ثم استعظم مشايخ العدل ــ يعني المعتزلة ــ ويريد بالمجبرة أهل السنة، حيث قالوا إن الخير والشر كلاهما من عند الله بخلقه وإرادته، لوكان من فعل العبد ظاهرا" (حاشية المرزوقي ــ هامش الكشاف: ٦٥٨/٢).

[6] الكشاف: ٤٠٥/١.

يقصد بذلك أهل السنة [1]، وردّ ابن المنير عليه بقوله: "نسبته إلى أهل السنة التعامي والتصامي والهوى والبدعة والافتراء، فالله حسيبه في ذلك"[2].

مذهبه النحوي:

لقد ألف الزمخشري ثلاثة كتب في النحو هي: المفصّل، ومقدمة الأدب، والأنموذج وهو كتاب اقتضبه الزمخشري من مفصَّله، ويبدو من هذه المؤلفات وغيرها اتباع الزمخشري للمدرسة البصرية باستخدامه مصطلحاتها وتأييده لآراء شيخ النحاة سيبويه.

مكانته العلمية:

إذا كان الزمخشري واحدا ممن اختلفت عليهم آراء العلماء فمنهم من مدح ومنهم من قدح، فنتاجه الفكري يبقى دليلا قاطعًا على نبوغه، فقد ألف نحو خمسين مؤلَّفا في فنون الأدب واللغة والترجمة والتفسير والحديث والفقه.

ومن الجدير بالذكر أن خصوم الزمخشري لم ينكروا عليه هذه المكانة ولا سيما في علم البيان، فهذا أحمد بن المنير المالكي الإسكندري (ت ٦٨٣ هـ) صاحب الانتصاف يقر بهذه المنزلة في علم البيان ــ رغم انتقاده لآراء الزمخشري الاعتزالية، فيقول: "وهذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا بالحبر"[3]، وقال في موضع آخر: "وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشري وتنقيبه عن أسرار الكتاب العزيز" [4]، كما اعترف له اعترافا صريحا بفروسيته في علم البيان بقوله: "فليت الزمخشري لم يتحدث في تفسير القرآن إلا من حيث علم البيان، فإنه فيه أفرس الفرسان، لا يجارى في ميدانه ولا يمارى في بيانه"[5]، كما قال عنه ابن السمعاني: "كان ممن برع في الأدب والنحو واللغة. لقي الكبار وصنف التصانيف ودخل خراسان عدة نوب وما دخل بلدا إلا واجتمعوا عليه وتلمذوا له وكان علامة الأدب ونسابة العرب تضرب إليه أكباد الإبل"[6].

---

[1] حاشية المرزوقي ــ هامش الكشاف: ٤٠٥/١.

[2] الانتصاف ــ هامش الكشاف: ٤٠٥/١.

[3] الانتصاف ــ هامش الكشاف: ٦١٣/٢، عندما أعجب بتفسير الزمخشري للآية: ١١٢ من سورة النحل.

[4] المصدر السابق: ٢١٦/٢، وذلك بخصوص تفسير الزمخشري للآية: ٤٢ من سورة الأنفال.

[5] المصدر السابق: ٦٤٢/١، فيما يتعلق بتفسير الزمخشري للآية: ٦٤ من سورة المائدة.

[6] طبقات المفسرين للسيوطي: ١٠٤.

الاعتزالُ في خوارزم

فتح المسلمون خوارزم في العصر الأموي سنة ٩٣هـ على يد قتيبة بن مسلم الباهلي[١]،ولكن لم يكن فتح المسلمين لخوارزم كغيره من الأقاليم التي دانت بالإسلام وعوَّلت على المنقول وحده باتباع المذهب السني، بل قدر للدعوة أن تقر في هذه البيئة الفكرية التي يعمل فيها أبناؤها العقل ويبذلون قصارى جهدهم في بناء أحكامهم على العقل والفلسفة، فهم كما وصفهم المقدسي: "أهل فهم وعلم وعقل وقرائح وأدب"، وقال: "إنني قلما لقيت إماما في الفقه والقرآن والأدب ليس له تلميذ من خوارزم"[٢]؛ وذلك لأنهم يعملون العقل ولا يأخذون إلا بمقتضاه، ومن ثم تعددت المذاهب بها، فعلى حين نجد الخوارج بسجستان ونواحي هراة، نجد المعتزلة بنيسابور، والشيعة أتباع علي والكرامية [٣] والشفعوية بكورة الشاش وطوس ونسا وأبيورد، وإن أخذ أغلب الخوارزميين بمذهب الإمام أبي حنيفة الذي كانت له الغلبة كما أقر المقدسي حين رحل إلى إقليم المشرق[٤]، ومن وصف المقدسي لهذا الإقليم نجد أنه لم تتعدد المذاهب فقط في هذا الإقليم، بل تعددت الديانات أيضا من يهودية ونصرانية قبل دخول الإسلام إلا أن المذهب الاعتزالي أخذ يسلك مسلك الهيمنة والشيوع رويدًا رويدًا حتى عمَّ الإقليم كله.

ناصر المعتزلة الشيعة في بادئ الأمر في أقاليمها؛ العراق وفارس وخراسان وما وراء النهر بعد قيام الدولة البويهية سنة ٣٣٢ هـ ــ سُموا بذلك نسبة إلى بني بويه ــ الذين غالوا في تشيعهم إلى أن تولى الصاحب بن عباد وزارة فخر الدين البويهي(٣٨٥:٣٦٧ هـ)وكان من أنصار المعتزلة فأسند إليهم أعلى المناصب، ومن ثم أخذ الاعتزال يطغى على خوارزم طغيان السيل العرم إلى أن أصبحت كلمة خوارزمي تعني معتزلي، بدليل موقف القاسم بن الحسن بن محمد الخوارزمي الذي ولد في سنة (٥٥٥هـ) حين سأله ياقوت: "ما مذهبك؟" فيقول ياقوت: "قلت له ما مذهبك؟ فقال حنفي ولكن لست خوارزميا، لست خوارزميا يكررها،إنما اشتغلت ببخارى فأرى رأي أهلها، نفى عن نفسه أن يكون معتزليًا"[٥].

---

[١] تاريخ الطبري: ١٢/٤.

[٢] أحسن التقاسيم: ٢٨٤.

[٣] أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام وهم من الصفاتية الذين يثبتون الصفات لله وينتهون بها إلى التجسيم والتشبيه (الملل: ١٢٢/١).

[٤] أحسن التقاسيم: ٢٨٤.

[٥] معجم الأدباء: ٢٣٨/١٦.

رغم ما سبق فإن شوكة الاعتزال لم تقو في فترة من الفترات كما قويت في العصر العباسي (من ١٣٢: ٦٥٦ هـ) وخصوصًا في عهد الخليفة العباسي السابع، الخليفة المأمون الذي حكم من (١٩٨: ٢١٨ هـ) إذ أصبح الاعتزال هو المذهب الرسمي للدولة[١] بسبب دوافع سياسية عديدة من قبل الخليفة، كما ظل كذلك في عهد أخيه الخليفة المعتصم الذي حكم ما من (٢١٨: ٢٢٨هـ)، ثم جاء الخليفة المتوكل الذي حكم من(٢٣٣: ٢٤٧ هـ) وحاول القضاء على المذهب الاعتزالي، بل اعتبر المعتزلة مرتدين عن الدين لقولهم بخلق القرآن، إلى أن وصل به الأمر بعزل أحمد بن داود قاضي القضاة المعتزلي من منصبه وجعل المذهب السني مذهبا رسميا للدولة مرة أخرى[٢]، ونهج خلفه الخلفاء من بعده إلا أنّ جرس الاعتزال ظل يدق بين الفينة والفينة قرابة ثلاثة قرون تالية.

أصول الاعتزال:

بنى المعتزلة مبدأهم على عدة أصول واتفقت كلٌّ فرقهم عليها، بينما اختلف العلماء في عددهم وإن اتفقوا في المعدود، فعدهم الدكتورأحمد محمد الحوفي ستة أصول[٣]، بينما عدهم الدكتور مصطفى الجويني خمسة [٤]، في حين أن الشهرستاني في كتابه (الملل) عدهم ثلاثة، مُهملا أصل المنزلة بين المنزلتين[٥] وهي أهم الأصول؛ لأن واصل اعتزل مجلس الحسن البصري بسبب هذه المسألة، أما كتابا (الفرق بين الفرق) و(الفصل) فلم يهتم فيهما بتحديد الأصول وعددها وإنما استخدم فيهما أسلوب السَّرد في وصف الأصول.

وتتمثل هذه الأصول فيما يلي:

أولا: التوحيد: واشتمل على عدة أفكار:

١ ــ نفي الصفات الأزلية القديمة.

٢ ــ نفي التشبيه.

---

[١] الإسلام في إيران: ١٤٠.

[٢] الإسلام في إيران: ١٤٣.

[٣] انظر الزمخشري: (١١٢: ١٦٦).

[٤] منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه: (١٠٩: ١٤٠).

[٥] ذكرها في الجزء الخاص بالواصلية، وهم أتباع واصل بن عطاء ولكن لم يعدها من الأصول المتفق عليها: (الملل: ٦٦/١).

٣ ــ إنكار رؤية الله

٤ ــ القول بخلق القرآن.

٥ ــ نفي كلام الله.

ثانيا: العدل: واشتمل على عدة أفكار:

١ ــ نظرية الصلاح والأصلح أو رعاية مصالح العباد.

٢ ــ الحسن والقبح بالعقل.

٣ ــ الله لا يفعل الشر أو الظلم أو القبح.

٤ ــ العبد قادر خالق لأفعاله وليس لله كسب فيها، أو حرية العباد.

ثالثا: الوعد والوعيد: واشتمل على عدة أفكار منها:

١ ــ تخليد الكافر في النار.

٢ ــ تخليد مرتكب الكبيرة في النار، ولكن عقابه أخف من عقاب الكافر، ويسمى فاسقًا.

٣ ــ الشفاعة لا تحل لمرتكب الكبيرة من الموحدين[1]، أو الشفاعة لا تقبل للعصاة.

٤ ــ وجوب استحقاق الثواب للمؤمن.

٥ ــ التفضل من الله معنى وراء الثواب.

٦ ــ غفران الله لذنوب العباد لا يخضع لمشيئته وإنما يخضع لتوبة العبد.

رابعا: المنــزلة بين المنــزلتين: واشتملت على عدة أفكار منها:

١ ــ تسمية مرتكب الكبيرة من الموحدين فاسقاً.

٢ ــ القول في الكبائر والصغائر.

---

[1] ضمها د / مصطفى الجويني لأصل المنــزلة بين المنــزلتين واعتبرهما أصلا واحدا لما بينهما من ترابط وثيق ولاشتراكهما في عنصر الفاسق.

خامسا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فقد رأى المعتزلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب بالقلب، فإن لم يكف فباللسان، فإن لم يكف فباليد، فإن لم يكف فبالسيف.

وهناك مسائل أخرى لم يُنص عليها في الأصول، وإنما هي فروع قد تتبع أحيانا معاني تلك الأصول، وقد حاولت جمعها بما تيسر لي من كتب بحثت موضوع الاعتزال،

ومن هذه الأصول:

١ ــ تكفير المعتزلة لتارك الحج.

٢ ــ موقفهم من سيدنا عثمان وقاتليه.

٣ ــ الإنسان لا يؤمر بفعل غيره.

٤ ــ تفضيل الملائكة على البشر.

٥ ــ عدم مخاطبة الكفار بفروع الشريعة.

٦ ــ الله لا يرزق إلا الحلال.

٧ ــ القتيل يموت قبل استيفاء أجله.

وقد قمت بالإشارة إلى المصادر التي اشتملت على هذه الأفكار في طيات البحث كلما تعرضت لها.

الكشّاف

ألف الزمخشريُّ "الكشاف" في مكة وهو ابن إحدى وستين سنة، قبل وفاته بعشر سنوات، أي وهو في قمة نضجه الفكري فيقول في أصل المصنف بخطه: "فرغت منها يد المصنف تجاه الكعبة في جناح داره السليمانية، التي على باب أجياد الموسومة بمدرسة العلامة ضحوة يوم الاثنين لثالث وعشرين من ربيع الآخر في عام ثمانية وعشرين وخمسمائة"[1].

لقد اطلع الزمخشري على نتاج سابقيه في اللغة والنحو مثل سيبويه (ت ١٨٠هـ) وابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) والمبرد (ت ٢٨٥هـ)، والتفسير للقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ) وعمرو بن عبيد المعتزلي (ت ١٤٤هـ)، والزجاج (ت ٣١١ هـ)، والرماني (ت ٣٨٤ هـ)، والبيان، والحديث، حيث اطلع على صحيح مسلم في أكثر من موضع، وهذا ما جعله يخرج الكشاف على الوجه الذي يرتضيه، مما جعله يقول:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمري مثل كشافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافي[2]

وهناك فكرتان لابد من ذكرهما و لم تتناولهما الدراسات التي تناولت الكشاف وهما:

١ ــ الآراء التي انفرد بها الزمخشري عن المعتزلة في الكشاف.

٢ ــ تناقضات الزمخشري في الكشاف.

إلا أنني فضلت عرضهما في الخاتمة، فضلا عن عرض موقف الزمخشري من القراءات ومحاولة الإضافة قدر المستطاع.

---

[1] الكشاف: ٤/٨٢٠.

[2] بغية الوعاة: ٣٨٨.